سياسة التنصير في الجزائر

عبد القادر خليفي

جامعة وهران

التنصير هو عملية تحويل المسلمين إلى الديانة المسيحية, أما كلمة التبشير المتعارف عليها فهي موجهة إلى الأقوام الوثنية التي لا دين سماوي لديها, أي أن هذه الأخيرة لا تنطبق على الديانتين اليهودية والإسلامية. وقد صحبت هذه العملية موجة الاستعمار التي اكتسحت العالم الأفرو -أسيوي خلال القرن التاسع عشر, بعد الانتهاء من العالم الجديد في أمريكا وأستراليا.

1 -الصراع المسيحي الإسلامي

لقد اصطدم أتباع الديانتين الإسلامية والمسيحية في عدة نقاط من سطح هذه الأرض, وقد ابتدأ الصراع منذ ظهور الإسلام وبخاصة بعد فتح بلاد الشام وبلاد المغرب المسيحيتين وتواصل النزاع وما يزال.

لقد اغتاظ الأوربيون المسيحيون من سرعة انتشار الإسلام بين الأقوام التي كانت تسكن بلاد المشرق والمغرب, الذين تخلوا عن المسيحية التي كانت منتشرة قبل الوجود الإسلامي في القرن السابع الميلادي, رغم أن المسلمين لم يكونوا يجبرون أحدا بقوة السلاح على الدخول في دينهم, والدليل على ذلك بقاء الكثير من الطوائف المسيحية على دينها في بلدان المشرق العربي. لذلك رأى هؤلاء المسيحيون الأوربيون أن الفتوحات الإسلامية جناية عظمى لا

تغتفر وخاصة في البلاد الإفريقية، لأن الإسلام قطع الصلة بين أوربا وإفريقيا المسيحيتين. وهكذا ناصب الأوربيون المسلمين العداء ووقفوا تجاههم موقف المدافع أول الأمر، لكنهم سرعان ما انتقلوا إلى الهجوم، فكانت الحروب الصليبية التي شنوها على بلدان المشرق العربي بتنظيمهم لحملات عسكرية تحت قيادة زعماء وملوك أوربا المسيحية منذ القرن الحادي عشر(1095-1291م). وما كادت الحروب الصليبية تنتهي في المشرق حتى قام الإسبان بالدور نفسه في المغرب، متبنين هذه الحروب بقيادة فرديناند وإيزابيلا.

وبعد أن قضوا على آخر مملكة إسلامية بغرناطة سنة 1492م نقلوا الحرب إلى الضفة الجنوبية للبحر المتوسط مهددين دول المغرب العربي منذ بداية القرن السادس عشر. وهكذا تم احتلال أهم الموانئ في المغرب والجزائر وتونس وطرابلس آنذاك.

وقد قاوم المسلمون سكان الشمال الإفريقي هذه الحملات الصليبية بكل قوة، ولم يمَكنوا الإسبان من تحقيق كل أهدافهم، وكان للعثمانيين دور إيجابي في مساعدة مسلمي هذه المنطقة على رد الغزو الصليبي وتهديده في عقر داره مرات عديدة. واستمر التوتر والاضطراب بين الطرفين: الجانب المسيحي الذي كانت تتزعمه فرنسا وإسبانيا والبرتغال، والجانب الإسلامي الذي كانت تتصدره الدول المواجهة للبحر المتوسط جنوبا وهي المغرب والجزائر وتونس وطرابلس، إلى أن كانت الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830،

على إثر حادثة المروحة الشهير.

الهدف الديني للاحتلال

لم تأت فرنسا إلى الجزائر بغرض الانتقام لكرامتها, كما يقال, بل هناك أسباب عديدة كانت وراء حملتها العسكرية, من بينها السبب الديني. إن تصريحات القادة الفرنسيين من مدنيين وعسكريين تثبت ذلك وتؤكده. فالملك شارل العاشر يصرح, في خطاب العرش المعتاد, في الثاني من شهر مارس سنة 1830, أي قبل أربعة أشهر من الاحتلال الفعلي, قائلا: "إن العمل الذي سأقوم به ترضية للشرف الفرنسي سيكون بعون العلي القدير لفائدة المسيحية كلها."[1] أما "بولينياك" رئيس حكومته فيشرح نوايا بلده تجاه الجزائر ويبرر قرار الحملة الفرنسية بأنه يدخل في إطار الدفاع عن "شرف فرنسا والدين المسيحي دون أية نوايا استعمارية."[2] أما الجنرال "دي بورمون" قائد الحملة العسكرية فقد اصطحب معه ستة عشر قسيسًا, وعندما سقطت بيده مدينة الجزائر خاطبهم بقوله: "إنكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا, ولنأمل أن تيْنَعَ قريبا الحضارة التي انطفأت

في هذه الربوع."[3]

لقد أعاد الفرنسيون, بزعامة ساستهم وضباطهم, الروح الصليبية الحاقدة برفعهم راية المسيح ضد الإسلام, معتبرين احتلالهم للجزائر استردادًا لبلاد كانت تدين يوما بالمسيحية قبل ظهور الإسلام. "فلكي يبرر الاستعمار عمله يضع نفسه تحت سلطة الصليب المعنوية, ويعطي للمستعمر صبغة المبشر الذي يريد أن يضمن سعادة قريبة من بني البشر..."[4]

فالنزعة الصليبية كانت أحد أسباب الاحتلال الفرنسي للجزائر, أي أن احتلال فرنسا للجزائر لم يكن إلا امتدادًا للنزاع المسيحي الإسلامي, الذي ابتدأ في المشرق ليستأنف في المغرب. لهذا استخدمت فرنسا كل الوسائل لتحطيم الدين الإسلامي, فقد جاءت إلى الجزائر "بالراهب الاستعماري لتفسد به على المسلمين دينهم وتفتنهم به عن عقائدهم وتشككهم بتثليثه في توحيدهم.. ذلك كله بعدما أمدته بالعون وضمنت له الحرية.."[5]

الاستيلاء على المؤسسات الدينية:

إن ما قام به الفرنسيون في الجزائر يناقض الاتفاقية المبرمة بين الداي حسين حاكم الجزائر عام 1830

والجنرال "دي بورمون" قائد الحملة الفرنسية على الجزائر آنذاك, حيث جاء في الفصل الخامس من الاتفاقية ما يلي: "إقامة الشعائر المحمدية تكون حرة ولا يقع المساس بحرية السكان من مختلف الطبقات ولا بدينهم ولا بأملاكهم ولا بتجارتهم وصناعتهم, وتحرم نساؤهم, والقائد العام يتعهد بذلك عهد الشرف."لقد تم اختراق مضمون هذه المادة, وأصبح التعهد حبرا على ورق, فقد حولت المساجد إلى كنائس أو مستشفيات أو ملاجئ, وهاهو حمدان خوجة أحد رجالات الجزائر وشاهد عيان يفضح كل ذلك حين يذكر مثلا أن الجنرال كلوزيل (1830-1831) "أوجب على المفتي أن يسلم المساجد الواقعة أمام الأبواب التي يدخلها البدو". ويضيف: "لقد طَلب هذه المساجد ليجعل منها مستشفيات لجيوشه وتعهد أنه لن يستعملها أكثر من شهرين..", ويواصل حمدان خوجة قوله: "وعندما كنت عضوا في مجلس البلدية في عهد بورمون, طَلب منا شيخ البلدية أن نسمح له بتحويل عدد من المساجد إلى مستشفيات للجيش...ورُفضت ملاحظاتنا ووقع الاستيلاء ظلما على المساجد."[6]

ويضيف في مكان آخر: "وإذن فإن الحكومة الفرنسية قد استولت على تلك المعابد ووضعتها تحت تصرف إدارة أملاك الدولة، كما أنها اكترت بعضها لعدد من التجار، فبمقتضى أي قانون تستولي تلك الإدارة على تلك البنايات؟."(7)

إن هذه الشهادة الصادرة من أحد مثقفي الجزائر وأعيانها الذين عاشوا السنوات الأولى للاحتلال هي إدانة صريحة لتلك الأعمال اللاإنسانية، فأي حقد وأي تجاوز للقوانين والأعراف! ذلك الذي قامت به سلطات الاحتلال ضد مقدسات المسلمين.

ولقد أثبت المؤرخون الفرنسيون المعاصرون مثل هذه الأعمال استنادا إلى وثائق أسلافهم، بعدم احترام شعائر الجزائريين ومقدساتهم باستغلال المنشآت الكبرى من قصور ومنازل كبيرة ومساجد وزوايا من أجل خدمة المصالح الفرنسية. لقد قام الجنود الفرنسيون الذين عسكروا في ضواحي مدينة الجزائر بحرق أشجار الفواكه وتدمير الغلال وفتح مجاري المياه المعدة للري وكسر الرخام والمرمر في كل مكان، ولم يمنعهم رؤساؤهم من ذلك، بل تركت لهم كل الحرية. أما عندما انتشرت بينهم الأمراض في

تلك المناطق فقد قام رؤساؤهم بنقلهم إلى المدن وبخاصة مدينة الجزائر, "ولإسكانهم تم إخلاء سكان المنازل المجاورة للسور وفي القصبة عند باب عزون -دون تعويض - وتم تحويل عدة مساجد إلى ثكنات عسكرية. أما الضباط فسكنوا القصور والمنازل الخاصة ووضعوا مصالحهم الإدارية في الزوايا وأماكن العبادة... وهكذا تم الخروج على التعهدات المعلنة من قبل بورمون باحترام الممتلكات وأماكن العبادة, وهذا قبل أن يغادر الجزائر."(8)

ولم تتوقف التجاوزات عند هذا الحد, لقد تم تدنيس الأموات وانتهاك حرماتهم, ففي عهد كلوزيل – مثلا - "نهب الأموات في مدافنهم, وسمح بالاتجار بالعظام البشرية وبيعت حجارة المقابر.."9

هذه بعض أوجه الاستعمار الحاقد الذي لا يثنيه عن أطماعه رادع ولا وازع. ورغم ما عرف عن حمدان خوجة من اعتدال في مطالبه واستعماله أسلوب اللين والدبلوماسية فإنه لم يُخْفِ رفضه للأعمال التي كانت تقوم بها سلطات الاحتلال, وحاول بما استطاع أن يوقف هذه الأعمال الشنيعة دون نتيجة. وقد أعاد

أسباب تلك التجاوزات إلى حقد فرنسا على ديننا.

لقد استولت السلطات الاستعمارية على الأوقاف بقرار من وزير الحربية بتاريخ 23 مارس 1843 الذي ينص على أن مصاريف ومداخل المؤسسات الدينية تضم إلى ميزانية الاستعمار. وبذلك توقف الدور الذي كانت تقوم به هذه المؤسسات من أعمال خيرية وخدمة المساجد والمدارس القرآنية، وأصبحت مداخيلها بيد سلطات الاحتلال تتصرف فيها كما تشاء. وبعد حوالي أربعين سنة من الاحتلال صدر قانون كريميو (الخاص بتجنيس اليهود) فتم احتضان اليهودية وحماية أهلها وتم إشراكهم في السيادة ومحاربة الجزائريين المسلمين.

و عندما صدر قانون فصل الدين عن الدولة سنة 1905 والذي طبق على الجزائر سنة 1907 شمل الديانتين المسيحية واليهودية ورُفض تطبيقه على الدين الإسلامي الذي بقيت شؤونه بيد الحاكم العام الفرنسي بالجزائر. وبهذا كشفت السلطات الاستعمارية عن نواياها الحقيقية، وهي استعمار الشعب الجزائري في كل الميادين، ورفض كل نوع من الحرية، ليتم التسلط على الجانبين الروحي والمادي

للشعب المغلوب على أمره.

ففرنسا أصبحت تتعامل مع الشعب الجزائري "الأهلي" عكس ما تتعامل به مع شعبها هناك ومع المستوطنين الأوربيين هنا, فهي تحمي حقوق الإنسان وتسمح بحرية الأديان, ولكنها عندما تتعامل مع من تسميهم بالأهالي في الجزائر فهو الإرهاب والعبودية. فالدين الإسلامي ملك للسلطات الفرنسية تحتكر مساجده وقضاءه وتتصرف في رجاله وأوقافه حسب مصالحها, ومن جهة أخرى فهي التي تعين الراهب في الجزائر وتدعمه بكل الوسائل.

المجد الغابر:

لقد جاء الفرنسيون –كما يقولون - لاستعادة مجد المسيحية الضائع, وأصبح هذا دَيْدَنُ كل واحد منهم. وفي هذا المجال يُذكر أنه عندما قام أحد الرحالة الفرنسيين بزيارة إلى الجزائر سنة 1844 والمسمى بُوجُولا(Poujoulat)كتب مذكراته التي يتجلى فيها تأييده للاحتلال الذي يعتبره خدمة للمسيحية, ويتضح رأيه أكثر في هذه الصيحة الواردة في مذكراته "أحييك يا كنيسة إفريقيا الجديدة, يا بنت القديس

سيبريان و أوغستان. لقد بُعثت من القبر بفضل عبقرية بلادي و إيمان أبنائها. وأنا فخور أن أراك انتعشت تحت راية فرنسا."[10] إنه يستعيد ذكريات أعلام المسيحية في العصور القديمة الذين أنجبتهم إفريقيا, وكان لهم دور مهم في ذلك الحين مثل الراهب تيرتيليان (Tertulien) المتوفى عام 258م, والراهب "سانت أوغستان" الذي عاش خلال القرن الرابع الميلادي, حين كانت كنيسة قرطاج تشرف على ست أسقفيات تشمل سبع مائة راهب. إنهم يعتبرون الإسلام عدوهم الأكبر لأنه قضى على المسيحية في هذه الربوع حين كان الروم أسياد البحر المتوسط, ولكن غرور الرومان وتسلط سيوفهم على رقاب الناس بعيداً عن روحانية الديانة, أفقد سكان البلاد ثقتهم في هؤلاء.

لقد جاء الإسلام إلى هذه البلاد وإلى غيرها بروح سمحة, وكان اتصال الفاتحين بالناس اتصال خير وعدل وإحسان, كما أنه أبقى على العقائد والمعابد, بل حماها وحافظ عليها. لقد وجد الناس في الدين الإسلامي مبتغاهم فدخلوا فيه أفواجًا. كان الرومان رجال تسلط وتكبر, لم يقدروا شأن الناس ولم يخالطوهم في شيء عكس ما فعله المسلمون

الفاتحون, إذن فلا مجال للحيرة والتعجب من سرعة انتشار الإسلام في شمالي إفريقيا.

أما الأسقف "لافيجري" فقد اعتبر الإسلام دين التعصب والوحشية واعتبر معتنقيه عبيد اللذات والشهوات, وذلك في خطاب تنصيبه أسقفا للجزائر سنة 1867 والذي قال فيه متسائلاً: "ما هو تاريخ إفريقيا الشمالية؟ اسألوا عنه الآثار التي تملأ أرضكم تجدونها آثار ثلاث دول وأجناس, وهي بقايا حضارات ماجدة مختلفة", وبعد أن عدد بعض المدن القديمة والشخصيات المسيحية البربرية آنذاك, أجاب عن سؤاله بقوله: "أما نحن المسيحيين فإن التاريخ الذي يهمنا من إفريقيا هو تاريخ الكنيسة الإفريقية ذات السبعمائة قسيس وكنائسهم المنتشرة طول البلاد وعرضها, ودورهم وأضرحتهم وعلمائهم؛ حيث كانت أرضها تتبخر بدماء ضحايا العقيدة." وبعد أن يشير إلى ما لاقته البلاد من تخريب على يد الوندال, يواصل كلامه قائلاً: "ولم يمر على كارثته (الوندال) قرن واحد حتى اكتسحت إفريقيا فرق المتعصبين المتوحشين من جزيرة العرب أصحاب دين الحسية

عبيد الشهوات واللذات.."[11]

هكذا إذن يعتبر "لافيجري" المسلمين متوحشين لا همَّ لهم سوى قضاء مآربهم وشهواتهم, أما الفرنسيون فقد جاؤوا لهداية السكان وإخراجهم من الوحشية إلى الحضارة والتقدم!!

فمن هو لافيجري؟ وما دوره؟

عُيّن " لافيجري" أسقفا للجزائر سنة 1867 خلفا للأسقف بافي (Pavé). وقد تميز لافيجري عن سابقيه بالذكاء والنشاط. لقد كان الساعد الأيمن للبابا ڤْريقْوَار الثامن في روما, أرسله في بعثة إلى الشام على إثر الأحداث الدموية لسنة 1860. و بعد أن عين أسقفاً بالجزائر أسس جمعية الآباء البيض سنة 1868 والتي انتشرت في إفريقيا الشمالية بمؤسساتها. وقد صادف تعيين لافيجري أسقفاً بالجزائر سنة 1867 وقوع مجاعة خطيرة استغلها الأسقف بمساعدة السلطات الفرنسية لجمع اليتامى والمشردين من الأطفال, وأقام لهم قرى, وأنشأ لهم مدارس يتعلمون فيها الإنجيل والمبادئ الأولية للقراءة, وزوّج اليتامى واليتيمات وكوّن منهم أسرًا وزّع عليها الأراضي الفلاحية لخدمتها. وكان هدفه جعل هؤلاء الأطفال مسيحيين أصدقاء لفرنسا

يساعدونها في البقاء بدل أن يحملوا السلاح ضدها يومًا.

لقد كان الكاردينال لافيجري رجلاً متعصبًا للدين المسيحي يعمل المستحيل لنشره بين الجزائريين أو طردهم إلى القفار, هذا ما صرح به حين قال: "يتعين على فرنسا أن تفسح لنا المجال لنقدم له (الشعب الجزائري) الإنجيل أو يُطرد هذا الشعب إلى الصحراء بعيدًا عن العالم المتمدن."[12]

لقد عارض المعمرون سياسة لافيجري التنصيرية وإقامته لقرى مسيحية يقيم فيها العرب المنصَّرون من يتامى الحروب ومآسي الجزائر, وذلك خوفًا على مستقبلهم من المنافسين الجدد. و عندما كبر هؤلاء الأطفال وأصبح منهم الراهب والقسيس قاطعهم المعمرون لا لشيء إلا لأنهم من الأهالي.

أما السلطات العسكرية فقد ساعدت لافيجري في مشاريعه, وبخاصة في عهد الحاكم العام "دي قيدون" منذ سنة 1871, الذي لقبه المعمرون بالأميرال كاردينال, واستمر لافيجري في عمله التنصيري متنقلاً بين أجزاء الوطن الجزائري والبلاد التونسية

إلى أن توفي بمدينة الجزائر سنة 1892.

لقد كان الكاردينال لافيجري فألاً سيئًا على الجزائريين حيث كان شديد التحمس لتحويلهم عن دينهم إلى الدين المسيحي أو طردهم إلى مجاهل الصحراء لإفنائهم، كان هذا هو الخيار الذي لا خير فيه.

وقد بدأ لافيجري بالهجوم، ورَبَط قضيته بالاستعمار وطالب بحرية الإرساليات، وبث نداءاته إلى أساقِفة فرنسا والدول المسيحية لجمع المال بهدف تمويل مشروعه القاضي بجمع الأطفال الأيتام وتنصيرهم. وقد رفضت الكنيسة إعادة الأطفال إلى ذويهم الذين طالبوا باستعادتهم، وصرح لافيجري ردًا على تلك الطلبات بقوله: "إنهم لي، لأن حياتهم التي يعيشون بها أنا الذي حفظتها لهم. إنها إذن القوة وحدها التي تنزعهم من ملجئهم."[13]

أساليب التنصير:

انتشر المبشرون –كما يسمون أنفسهم - في مختلف نواحي القطر الجزائري بغرض التنصير، متسترين وراء الأعمال الخيرية كمساعدة المعوزين واليتامى والمشردين والعجزة ومعالجة المرضى وفتح المدارس

للأطفال "بالتعليم ذي البرنامج التمسيحي الصريح أو برنامج لهدم العقيدة والأخلاق الإسلامية وبث التقديس للأمة الفاتحة وحضارتها وثقافتها."[14] و قد اشترك في هذه الأعمال مدارس المبشرين والمدارس العمومية الأخرى على السواء, لتفكيك تماسك الأسرة الجزائرية عن طريق تربية الأطفال تربية دينية تخالف تعاليم أسرهم المتوارثة.

و لم ينس المبشرون القسم الجنوبي من الجزائر, بل أقاموا فيه بدوره مؤسساتهم. وهكذا "دخل هؤلاء الرهبان في الأوساط الجزائرية فنزلوا وتمركزوا بمدينة معسكر والبيض والأغواط وبسكرة ومتليلي.."[15] بل وفي كل مكان تتواجد به حياة بشرية. وهكذا استقر الراهب "شارل دي فوكو" عام 1905 بمنطقة الهقار بعد أن جال بلاد المغرب الأقصى بين عامي (1882-1884)[16] يسجل الملاحظات والتقويمات لتخطيط طرق الصحراء ومراكزها الهامة متنكرا في زي يهودي, وقد أفادت كتاباته كثيرًا في اختراق الصحراء وغزو المغرب الأقصى سنة 1911.

لقد اعتبر الكثير من مسؤولي السلطات الفرنسية في

الجزائر أن الإسلام هو الموجه لكل الانتفاضات المقاومة للاحتلال, لذلك عملوا على التضييق على العلماء ومعلمي العربية, ووصل الأمر بهم إلى منع الجزائريين من الحج حتى لا يتصلوا بغيرهم, وهذا ما قام به الحاكم العام الأميرال دي قيدون في مايو عام 1873 و1874 و1877 ومن سنة 1881 إلى 1886 بسبب حركة بوعمامة, لكن تحت ستار الوباء, مبررًا ذلك المنع بقوله: "إنهم يعودون أقل طاعةً لنا."[17]

وقد اشتهر عنه أنه من الذين شجعوا سياسة تحويل الجزائريين إلى كاثوليك, ودعم أعمال لافيجري, كما ذكرنا ذلك سابقا. و مما قاله في هذا المجال: "إن الوقت قد حان لضم هذا الشعب المغلوب على أمره شيئًا فشيئًا إلينا وإلى الحضارة المسيحية."[18]

هكذا إذن تدعم موقف الآباء البيض والأخوات بمؤسساتهم المنتشرة عبر مدن وقرى الجزائر, بدعم من السلطات العسكرية. فالآباء البيض يفتحون المدارس لتعليم أبناء الجزائر, بينما تقوم الأخوات بالإشراف على بعض مراكز التكوين المهني والتطبيب وبخاصة للبنات أمهات المستقبل, والتعليم والتكوين أحسن وسيلة لغزو القلوب وكسب الأفكار.

لم يلق هؤلاء المبشرون النجاح الكامل لمشاريعهم سواء في الجزائر أو في غيرها من البلاد الإسلامية لتنصير المسلمين باستغلال ظروفهم المأساوية, لذا اكتفوا آخر الأمر بزرع أفكار تشتت عقائد المسلمين وتنشر الفراغ الديني في نفوسهم بل وتشككهم في دينهم, فكانوا يختارون البسطاء من الناس لغزو أفكارهم وتصوير المدنية المسيحية بأجمل الصفات كي يخلقوا جيلا من اللادينيين. لقد أوصى بعضهم بعضا بأن يتقربوا من المسلمين ليعرفوا عاداتهم وتقاليدهم فيحترموها, حتى يطمئن إليهم الناس فيسهل عليهم نشر أفكارهم الهدامة ليفقد المسلمون ثقتهم بأنفسهم و بأصالتهم.

جاء في أحد الكتب الموجهة إلى رجال التنصير المسيحي تحت عنوان: (طرق العمل التبشيري بين المسلمين):

"لنجعل هؤلاء القوم المسلمين يقتنعون في الدرجة الأولى بأننا نحبهم, فنكون قد تعلمنا أن نصل إلى قلوبهم, ويجب على المبشر أن يحترم في الظاهر جميع العادات الشرقية والإسلامية حتى يستطيع أن يتوصل إلى بث آرائه بين من يصغي إليها, وعليه مثلا أن يتحاشى أن يقول عن المسيح إنه ابن الله حتى لا ينفر منه الذين لا

يؤمنون هذا الإيمان, فيستطيع أن يقاربهم حينئذ بما يريد أن يدعوهم إليه.[19]

لقد انتشر المبشرون في الجزائر فرادى وجماعات في الشمال والجنوب, ففي منطقة الأبيض سيد الشيخ – مثلا - مَلَكَ الآباء البيض الخيام وقطعان الماشية وسلكوا سلوك الجزائريين كالترحال والضيافة وتبادل الزيارات, وهم حيثما كانوا يختلطون بالجزائريين فيشاركون في الملتقيات والمهرجانات الثقافية المحلية و الجهوية ويؤسسون الجمعيات أو ينضمون إليها, ويدعمون عمل بعضها أو يتعاقدون مع بعض المصالح الإدارية لتكوين الشباب مهنيا وخاصة من قبل الأخوات. فهم إذن ليسوا منعزلين, بل إنهم يعقدون الصداقة مع الأفراد والأسر وبعض الشخصيات ذات النفوذ والسلطة هنا وهناك, مستغلين ذلك للتحرك والنشاط المتعدد الأشكال, وهم لا يتوانون عن تقديم المساعدة عندما يجدون القبول والاستحسان من الآخر.

وهم يستغلون الأزمات الاجتماعية والاقتصادية التي يقع فيها الشباب المهمش الأكثر عرضة لعذاب الزمن وتقلبات الأيام, فيتقربون منهم ويفتحون لهم أبواب

الأمل ويحاولون أن يخففوا عنهم ثقل الهموم وعذاب الفقر والمشاكل, ويقدمون لهم العون والمساعدة (العهد الاستعماري - أزمة الجزائر في التسعينيات - أزمة القبائل), وآنذاك يكشفون عن سرهم ويعرضون عليهم المسيحية كدين مخلّص من هذه المشاكل, بل ويفتحون للبعض أبواب التعليم في فرنسا نفسها بمساعدة المصالح الدينية هناك.

وتعمل بعض الإذاعات الموجهة إلى بلاد المغرب العربي على التعريف بالمسيح وبتعاليمه –المتعارف عليها اليوم - وتقوم هذه المؤسسات بإرسال كتيبات عن الأفكار المسيحية باللغة العربية والأمازيغية ومعها بطاقات أسئلة يجيب عنها الطالب ويعيدها إلى المؤسسة الإذاعية فتبعث له بأخرى, وهكذا دواليك. إنها سلسلة من الدروس والأسئلة يؤدي تداولها المستمر إلى رسوخ أفكارها ونبذ غيرها, أي نبذ الأفكار الإسلامية شيئا فشيئا.

وعموما فإن المبشر المسيحي قد برهن على التضحية بالحياة الراغدة الهنيئة, واستبدلها بحياة الخشونة في سبيل نشر أفكاره في القرى البعيدة والصحاري

المترامية, والعمل بكل إخلاص في إطار جماعي أو فردي متحملا كل عوائق الطبيعة ومخاطر الزمن.

هذه هي سياسة التبشير والتنصير التي اقترنت منذ عام 1830 بالاستعمار الفرنسي في الجزائر, وهي تتلون حسب الظروف والأحوال, قاومها الشعب الجزائري طيلة قرن وربع وما يزال.

ولقد كان للإبداع الشعبي رأي في سياسة التبشير والتنصير كغيره من المواضيع. وهاهو الراوي (بوشيخي الجيلالي)[20] تحضره مقطوعة ورثها عن أسلافه يقول فيها :

قال يْجِيكمْ رَهيبْ   يْخَرَّبْكُمْ تَخرِيبْ
في قَوْلهْ كَذِيبْ   في الدّينْ يْبَدّلْ
مَنْ ذُرّيَة المَسِيحْ   اشْمَتْهُمْ شَميتْ
بَاليسْ المْتّلْ.

خصوصية الاستعمار الفرنسي:

لقد بلغ التعصب الفرنسي الديني مداه مثلما بلغ الظلم والإرهاب مداه لدى الاستعمار الفرنسي تجاه الجزائريين, فسياسة الأرض المحروقة بإبادة السكان وهدم كل معالم الحياة لديهم, كانت الشغل الشاغل لكل فرنسي وأوربي بالجزائر "وإذا كنا نتفق على أن الاستعمار الفرنسي هو أسوء وأغلظ وأعنف

أنواع الاستدمار, فإن التنصير الفرنسي كان كذلك أخبث أنواع التنصير."[21] إن الدولة الفرنسية كان يقال لها "ابنة الكاثوليكية البكر", هي التي تزعمت حملات التنصير والحرب في المشرق, وهي السباقة إلى غزو المغرب العربي واحتلال الجزائر عام 1830. لقد قارن أحدهم بين الاستعمار الفرنسي والإنكليزي, فشبه البلد المستعمَر (بفتح الميم الثانية) بشجرة طويلة مثمرة يأتيها الاستعمار الإنكليزي فيقطع ثمارها, أما الاستعمار الفرنسي فيقطع الشجرة من جذعها.

فإذا كانت بعض الدول الاستعمارية تكتفي بجني ثمار البلد المستعمر, أي الحصول على ثرواته المختلفة واستغلالها وتسخير السكان لخدمة ذلك, فإن الاستعمار الفرنسي يتجاوز ذلك فيعمل على القضاء على المقومات الشخصية للشعوب, ويحاول أن يفرض لغته ودينه وأفكاره بدلا من موروثات سكان تلك البلاد المستعمَرة. و يوضح البشير الإبراهيمي ذلك سنة 1949 في قوله: "قرأنا سير الإنكليز في الهند فوجدناهم بالغوا في إعطاء الحرية للأديان, حتى بلغوا حد السخافة, وسووا في تلك الحرية بين قراء البقرة –بالحق - وبين عباد البقرة –بالباطل - ويسروا سبيل الحج حتى اتسع معنى الاستطاعة.."[22] أما الاستعمار الفرنسي فيذكر الإبراهيمي أنه يعمل على قتل

المعنويات وتخدير الاحساسات الروحية، وأنه يباشر وسائله بالحقد ويشربها معاني الانتقام... أي أن هناك فرقا بين استعمار واستعمار، فبينما يباشر أحدهم وسائله بالتشديد والتضييق والحقد والانتقام، فإن الآخر يباشر تسلطه بنوع من التسامح واللين للحصول على مبتغاه، والاستعمار الفرنسي من النوع الأول إلا أن كلا منهما بغيض كريه لأن هدفهما استعباد العباد وتخريب البلاد.

لقد كانت الجزائر أفضل نموذج لبلد مستعمَر، جعلها الفرنسيون حقلاً لتجارب الإبادة والمسخ أكثر من جارتيها المغرب وتونس اللتين وُضعتا تحت الحماية، في حين كانت الجزائر تحت الحكم الفرنسي المباشر لا حق لأهلها في المشاركة في السلطة إلا كخدام يسهلون سرقاتهم رغمًا عنهم. لقد مهّد الاستعمار الطريق للمبشرين حينًا، ومهّد المبشرون الطريق للاستعمار حينا آخر. وكلاهما يعمل في سبيل واحدٍ و بشكل متكامل.

والاستعمار عندما يمهد للمبشرين فإنه يدمر ويقتل ويفقر ويجيع ويُمَكّن للجهل والمرض، فيتهيأ الأمر للمبشرين وتذلل لهم وسائل التنصير. أما المبشرون فهم يسبقون الاستعمار بجلب النفوس وكسب البسطاء والفقراء عن طريق الرغيف والدواء فيسهل تغلغل الاستعمار. "إن الاستعمار أقبح باطل وأشنع ظلم على وجه الأرض، فهل يعد من أتباع المسيح وورثة هَدْيِهِ من

يَنْصُر الاستعمار؟"[23]

وضعت الكنيسة كل إمكانياتها في خدمة الاستعمار مثلما سهل لها هو كل السبل تنكرا لمبدئه في الغرب بفصل الدين عن الدولة. "ويندهش الباحث عندما يرى كبار رجال الكنائس يتناسون المسيحية ومبادئها الأصيلة السمحة، ويجندون أنفسهم لخدمة الاستعمار، وهم يتخذون الدين المسيحي وسيلة للضغط على الشعوب ليظل كلام الكنيسة سيفاً مسلطا على الرقاب..."[24]

لقد اتفقت مصالح الحاكم الظالم ورجال الدين المسيحيين في كثير من الأحيان، فهاهو القس فرانكلين غراهام الواعظ الديني المسيحي في البنتاغون، يبعث في حرب الخليج الثانية عام 1991 بثلاثين ألف نسخة من الإنجيل باللغة العربية إلى الجنود الأمريكيين لتوزيعها على المسلمين في العراق، ، وهو يصف الإسلام بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، بأنه دين شر وإيذاء. و بعد العدوان الأمريكي على العراق في مارس 2003، يتزعم خطَطَ منظمة الإغاثة لإرسال رجالها إلى العراق، باعتبار أنها جهود إنسانية، وهي في حقيقتها غطاء لعمليات التنصير[25]. وهو في عمله هذا لا يختلف عما فعله الجنرال دو بورمون، قائد الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830، حين استقدم معه عددا هاما من القساوسة، وصرح في العديد

من المرات أن حملته هذه هي لخدمة المسيحية, وهذا ما باح به الملك الفرنسي شارل العاشر نفسه آنذاك ومعه بولينياك رئيس حكومته.

هكذا إذن تعرضت الجزائر لحملة شرسة من قبل رجال الدين المسيحيين المدعمين من السلطات الفرنسية في الجزائر, هدفها تتصير الجزائريين واستغلال الظروف المأساوية الطارئة للتغلغل بين السكان تحت غطاء المساعدة والخدمات الإنسانية.

الهوامش

1 -أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, دار الكتاب, ط:2, البليدة, 1963, ص:46.

2 -Hubert Beschamps, Les méthodes et doctrines coloniales de la France, Paris 1953, P.99 انظر:.

3 -عبد الجليل التميمي, ملامح التفكير التبشيري عند المسؤولين الفرنسيين, محاضرة في ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي, تيزي وزو, 1973

4 - فرحات عباس, الثورة الجزائرية أو ليل الاستعمار, ترجمة وليم خوري, مطبعة الاعتدال, دمشق 1964, ص:110.

5 - آثار محمد البشير الإبراهيمي, الجزء:2, المؤسسة الوطنية للكتاب, الجزائر 1987, ص:83.

6 -حمدان بن عثمان خوجة, المرآة, تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري, ش و ن ت, الجزائر 1982, ص:280.

7 - المرجع نفسه، ص:288.

8 - انظر: Charles- André Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine, Presses universitaires de France, Paris 1964, P.65, Tome 1

9 -حمدان بن عثمان خوجة، ص:288.

10– مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص:53.

11 - المهدي البوعبدلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر، محاضرة في ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي، تيزي وزو، 1973.

12 - بوعمران الشيخ، الأسقف لافيجيي ونشاطه التبشيري (1867 -1892)، مقال بصحيفة الشروق العربي الأسبوعية، العدد: 44، 26 ماي 1994

13 -انظر: Charles André Julien, Ibid, P.441.

14 - علال الفاسي، نشاط التبشير ودوره الاستعماري، محاضرة في ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي، تيزي وزو، 1973.

15 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزار العام، الجزء:4، دار الثقافة، ط:4، بيروت 1980، ص:293.

16 - علي مراد، شارل دي فوكو في نظر الإسلام، ترجمة علي مقلد، المطبعة البوليسية، 1980، ص:63.

17 - انظر: Charles- Robert Ageron, Les Algériens musulmans et la France, Presses Universitaires de France, Paris 1968, p.:301

18 - Idem .p:302.

19 -مصطفى خالد وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العلمية ومطبعتها، بيروت 1953، ص:46.

20 - بوشيخي الجيلالي بن عبد القادر، 58 سنة، شيخ زاوية ببلدة ابن باديس، ولاية سيدي بلعباس، المقابلة في جويلية 1995.

21 -تعقيب أحمد الشرباصي على محاضرة الحبيب الجنحاني حول حركة التبشير، ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي، تيزي وزو، 1973.

22 -آثار محمد البشير الإبراهيمي، المرجع السابق، ص:93.

23 - المرجع نفسه، ص: 85.

24 - أحمد شلبي، مقارنة الأديان (المسيحية)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1967، ص:156.
25 - جريدة الرأي، العدد: 1520، ليوم 20 أبريل 2003، ص:13.